

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله حمدا يوافي نعمه ، ويكافئ مزيده . والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، ومن اتبع سبيله وترسم خطاه .
وبعد فإن النظر في ملكوت السموات والأرض ، وما خلق الله من شيء - من الأمور التي خلقت مع الانسان في طبيعته وأصل جبلته . فهو مفطور عليه ، مسوق - بما منح من قوة الإدراك والفهم - إلى البحث في حقائق الكون ، مدفوع - بما ذود به من غريزة حب الاستطلاع والتعميل لما يقع تحت حواسه من الأشياء - إلى تعمق أحوال السموات والأرض وما فيهما؛ ليقف على كنهها، ويدرك أسرار وجودها وحركاتها وسكانها ، وما إلى ذلك : من كيفها وكيفها ...
يدل على شيء من هذا ما كان من أمر نبي الله وخليفه إبراهيم (عليه السلام) : حينما ألهم فنظر في ملكوت السموات والأرض؛ ليستدل على الصانع الحكيم ، وليلزم قومه الحججة ، وليكون من الموقنين .
« فلما جن عليه الليل رأى كوكبا ، قال هذا ربي ؛ فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً ، قال هذا ربي ؛ فلما أفل قال لئن أبهى بهنى ربي لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة ، قال هذا ربي ، هذا أكبر ؛ فلما أفلت قال يا قوم إني برىء مما تشركون . »
وتلمس الاله الحق ؛ فلما عرفه قال : « إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين . »

وقد دعا القرآن الكريم إلى النظر فيما خلق الله ؛ للاعتبار ، وليس الاعتبار إلا نتيجة للادراك ، وفهم الحقائق ، وكشف الأسرار عن مكنونات ما في السموات والأرض : من نجوم مسخرات بأمره ، وكواكب ميسرات لما خلقت من أجله ؛ ومن بقاع حرها لافح ، وأخرى بردها قارس ، وثلاثة نسيمها عليل ... وما يتبع ذلك من أحوال العمران فيها ؛ على اختلاف في خواصها ، وتباين في مزاياها .

فكر الإنسان منذ خلق في هذه الأمور . وكانت آراؤه في الكون ونشأته تبدو خرافية أو قريبة إلى الخرافة . ولا غرو ؛ فقد كانت نتيجة دائرة من المعرفة ضيقة النطاق ، لا تعتمد إلا على وحى الفطرة الأولى . ولما كانت الفطر تختلف باختلاف البيئات ؛ كان لابد من أن تختلف درجات تفكيرها قوة وضعفا ، وتباين ثمرات مجهودها جودة ورداءة . ولذلك كان وصف الأولين للكون وما فيه مختلفا ، وبيانهم لحقائقه متباينا . وهم جميعا - مع ذلك - قد أخطأوا المرمى ، ولم يصيبوا الغرض إلا من طرف يسير . ولكن فضاهم لا ينكر ؛ فهم الذين سبقوا إلى هذا البحث فأنشأوه وأبدعوه ؛ حتى جاء من بعدهم جيل ترسم خطاهم ، ونسج على منوالهم . وفي هدى ما كان إذ ذاك من اتساع دوائر العلم ؛ خطأ خطوات : كانت موفقة أحيانا ، وضالة أخرى . ثم جاء جيل ثان فخطا خطى واسعة موفقة ؛ على ضوء ما استحدث من العلوم والفنون ، وما ابتكر من الأدوات والآلات ؛ حتى وصل إلى الغرض المنشود ، وتبين الحق حقا والباطل باطلا .

ومن ذلك ترى أن الحقيقة التي أصبحت الآن لا مرأى فيها ؛
كانت وليدة الفرض الخيالى ، والرأى الخرافى .

فاذا نحن دوننا فى هذا الكتاب ما كان من فرض خيالى أو رأى
خرافى ؛ فلم نعد أن بينا صفحة من تاريخ العقل الانسانى ، وكيف كان
يتجه فى البيئات المختلفة ؛ رجاء التعليل لما صارت إليه هذه البيئات
الآن من رقى أو انحطاط : فى الأحوال الاقتصادية والسياسية والاجتماعية .

وإذا نحن ترجمنا لعدد من علماء الاسلام ومؤرخيه : كالسعودى ،
وابن بطوطة ؛ فما ذك إلا لأننا رأينا أبناء العصر الحاضر من الشرقيين
يعرفون الشئ الكثير من تاريخ حياة علماء الممال الأخرى ومؤرخيها :
مثل ملطبرون ، وماركوبولو - فى حين أنهم يكادون يجهلون أولئك ؛
مع ما كان لهم من أثر يذكر فيشكر فى إنهاض علمى الجغرافية والفلاك
فى القرون الوسطى ؛ حتى كانوا للمحدثين من علماء العصر الحاضر بمثابة
نموذج ، لا يزالون ينسجون على منوالهم إلى اليوم .

وإذا بينا أحوال التجارة فى العصور الوسطى ، ورسمنا مسالكها
ومنافذها ، وأفردنا مصر وتجارها بكلمة خاصة ؛ فما ذك إلا لأن
المبادلات التجارية بين أُمم الأرض من أقوى العوامل فى تبادل
الآراء أيضا .

وإذا نحن ختمنا موضوعنا بتفصيل أحوال المناخ فى بقاع الأرض
المختلفة ؛ فذاك لارتباط المبادلات التجارية بها ارتباطا وثيقا ؛ ولما لها
من أثر فى أعمال الناس وآرائهم ومدى تفكيرهم .

ولقد وضعنا كتابنا هذا لمن يهمهم أمر العلوم الكونية : في
نشوئها ، وتدرجها في النمو ، وما كان من أمر أبطالها في النهوض بها
إلى أن وصلت إلى مستواها الحالي . ولا ندعى أننا بلغنا درجة الكمال
في بحثنا ؛ بل نطلب إلى إخواننا الأساتذة الذين سيطلعون على هذا
الكتاب ، أن يتفضلوا بموافاتنا بما يعين لهم من الآراء . ونحن
على أتم الاستعداد لقبول ما يكون فيها أدل على المراد وأدنى إلى
إصابة الغرض المقصود ؛ فإن كل ما نبغى هو أن نصل إلى إحقاق
الحق وتوخي الصواب .

« وبعد ، فإننا لا نجد بدا من التنويه بتلميذنا عبد السلام فتح الله
النحاس افندى ، الذي ساعد مساعداً مجدية : في العناية بتصحيح نماذج
طبع هذا الكتاب ، واستعمال علامات الترقيم ، وضبط ما يحتاج إلى
الضبط ، وتحرى اللغة الصحيحة في كثير من المفردات ؛ فله منا على
ذلك كله مزيد الشكر ، وعظيم الثناء . »

والله وحده الموفق والمعين ، وهو نعم المولى ونعم النصير

دار العلوم في رمضان سنة ١٣٥٣ هـ (يناير سنة ١٩٣٥ م)

المؤلف

محمد فخر الدين عبد الفتاح الزياي

مقدمة

إننا لا نجاوز حد الصواب إذا قررنا أن الجغرافية من أقدم العلوم التي وعثها الأفهام . ولا نغالي إذا قلنا إن هذا العلم شامل جامع متصل بسائر العلوم . يرى الباحث فيه لآلة الانتقال من علم إلى علم ، وتطبيق تلك العلوم على الظواهر الطبيعية والاشاهدات ، ثم إعمال الفكر في البحث والاستقصاء والتعميل . ولسنا نمدو الحقيقة إذا رددنا مع « استرابون » القول بأن الجغرافيين من أوفر الناس حكمة ، وأبعدهم عن خيالات الشعراء وأوهام السفهاء .

لهذا نرى أن كل من تصدى من الجغرافيين للكشف عن أقدم ما تخيله القدامى في الدنيا ، وحاول أن يقف على كيفية تدرج هذا العلم في معارج الرقى — اعترضته الصعاب التي تضل في سبيل تذليلها العقول ؛ لعدم وجود مراجع يستند إليها ، ويطمئن لها ؛ اللهم إلا أساطير لم تثبت حقيقتها ، وأسانيد لا يوثق بها . وهي إن دلت على شيء ، فإنها لا تدل إلا على مقدار اندفاع الأقدمين في تيار الخيال ؛ ومن أجل ذلك كانت أحكام هذا الموضوع مؤسسة على الظن والتخمين ، لا على الاعتقاد واليقين .

غير أنه لا ينبغي أن يتطرق إلينا الشك مطلقا ، في أن الإنسان كان في جاهليته الأولى كالعجماءات : يهيم على وجهه في الفيا في والفلوات ، ويسعى ليومه دون أن يفكر في غده ، وليس له من قانون غير قانون الأشد الأقوى . كان ذكاؤه أوليا محضا ، ومعرفته

للطبيعة وظواهرها مرتكزة على أخط ما عرف من ارتباط الافكار .
ولسكى يخرج من وحشيته وخشونته — كد وكدح فى سبيل استجماع
أصول ترقيه ، وناضل أعداءه طويلا ؛ فكان يكتب له النصر حينما ،
ويصدمه الفشل أحيانا . وقد اهتدى على طول الأيام إلى تسخير
قوى الطبيعة فى مصالحه المختلفة ، وتغلب على القوى التى اكتنفته بعد
طول مراس وجهاد . فهل نظن أن ذاك الانسان كان يفكر — أثناء
كفاحه — فيما يحيط به من مظاهر السكون ؟ وهل كان يدري شيئا
عن الأرضى التى تحيط بتلك البقعة الضيقة التى استوطنها ؟ وهل
أدرك أن هناك بقاعا واسعة من الأرض تمتد من بقعته إلى جميع
الجهات ، وبخاصة حينما رأى البحر المحيط لأول مرة ، وخيل إليه أنه
يمتد إلى أن يلاقى السماء ؟

نعم نظن أن الناس فى العصور الخالية كانوا لا يحيطون بالأرض
علما ، بل كان كل من يؤم قطعة من الأرض يظن أنها الدنيا برمتها ،
وكان لا يفارقها إلى غيرها مادام واجدا فيها موارد رزقه — وكذلك
كان الكلدان الأولون — فان كانت بقعتهم جزيرة ، حسبوا أن البحر
الذى حولها ليس وراءه إلا أطراف السماء ، ولا تزال بعض أمم
الأرض الآن على هذه الفطرة الأولى ، كأهل « كارولينيا » من
جزائر المحيط الهادى ؛ وإن كانت سهلا أو نجدا ، ظنوا الأرض كلها
على هذا النحو ، كأهل إفريقية الوسطى من الزنوج والمتوحشين ومن
على شاكلتهم .

أجل ، لقد كانت الدنيا في نظر الانسان الأول مؤلفة من الغابات التي يجوس خلالها للقنص ، ومن الأنهار التي يسلكها بزوارقه العتيقة ويعالج فيها صيد الحيتان ليقتات منها ، ومن الروابي التي يعتليها ليهتدى بها إلى كوخه أو كهفه الذي يأوى إليه .

إلا أن هذا الإنسان الأول قد أودع بذور العظيمة ، فتساقى وتعاون ، وكون الجماعات ، وعمر البقاع واستنبتتها ، فعز عليه فراقها ، وبدأ يحدد وطنه ، وربما شن الغارة على جيرانه يسلبهم أرضهم وموارد رزقهم ، مندفعاً إلى ذلك بما ركب في غريزته من الطمع والجشع . ويظن أن طوائف الصيادين هم أول من جعل للأقاليم حدوداً ، ثم زادت هذه الحدود ثباتاً بالغزو والفتوح ، وصار لبعض الأقاليم سلطان على البعض الآخر ، وكثرت مطالب الحياة فظهرت الحاجة إلى المبادلة ، وهي التجارة التي قامت على أساس اختلاف الغلات ، فكانت البعثات التجارية في الماضي عاملاً عظيم الخطوة في حياة الأقدمين . وكان يقوم بها طبقة خاصة من الناس يجوبون الآفاق ، ويتصلون بالشعوب الأخرى ، ثم يؤوبون إلى بلادهم حاملين في جعبتهم أخباراً وأقاصيص عن البلاد التي جاسوا خلالها ، والطرق التي سلكوها ، والعجائب التي شاهدوها ، والمصاعب التي كانت تعترضهم في سبيلهم . ورغبة في التغني بشجاعتهم ، والتمدح باقدامهم — كان هؤلاء الجوابون يحيطون أخبارهم هذه بأنواع المبالغيات ، كزعمهم أنهم رأوا في أسفارهم أغوالاً وأناساً طوالاً نازلوهم وتغلبوا عليهم ، وشاهدوا

مهالك ومناطق متهمة لم يستطيعوا اجتيازها . وقد زعم بعض أنه وصل إلى قبائل لا يعرف لغتهم ، ونسب إلى البلاد التي رآها أسماء اتفاقية . وربما كان من البواعث التي دعتهم إلى هذه المبالغات ، رغبتهم في أن يستأثروا بمنافع البلاد التي يقصون قصصها ، فلا يشاركون فيها أحد .

وقد تكون قصة « الأرغونتين » وهم الأبطال الذين سافروا مع « ياسون » في السفينة « أرغو » للبحث عن الساعخ الذهبي — قصة بعثة بحرية حقيقية على جانب كبير من الأهمية ، لاتصالها بحياة الأبطال وأنصاف الآلهة عند قدماء اليونان .

وقد ساعد هؤلاء القصاصين على التماذى في مبالغاتهم ، والاندفاع في تخيلاتهم — أنهم صادفوا آذانا ساذجة ، وعقولا لا تمحص حديثا .

ومن هذا تدرك أن الجغرافية مثل التاريخ — كانت ميسرة — مشتركا للخرافات والأقاويل ، إلا أنها من الخرافات التي لا تستغنى عنها المدنية ، بل هي في الواقع أساس وصف الدنيا أو « علم الجغرافية » . فان كان هذا العلم قد نشأ من أصول ضئيلة خرافية ، وبقي القرون الطوال رهن التحول البطيء — فقد استوى في النهاية علما جليلا ، بعد أن ماز العالم — غث الأفايص من سمينها ، وهذبوها على الوجه الأكمل ، واستخلصوا جوهر الحقيقة من رغام الخرافة .

والخلاصة أن الدنيا في نظر القدماء كانت ضيقة ، لا تعدو دائرة الأفق إلا قليلا .

إلا أنه بعد انتهاء ذلك العهد المظلم ، وارتقاء الانسان في علمه

وبحثه — كل لكل قبيل من الناس رأى في الدنيا . ولنبدأ بأراء المصريين القدماء ، باعتبار أنهم هم المؤسسون الأولون لصرح الحضارة في العالم .

رأى المصريين الأقدمين في الكون

ومعارفهم الجغرافية

تمهيد . من أراد أن يقف على رأى المصريين في الكون ، فليول وجهه شطر ديانتهم يدرسها ؛ فهي مصدر مدنياتهم وثقافتهم ، وعلومهم وفنونهم ، وأثارهم وسائر مرافق حياتهم . والمصريون الأقدمون كانوا من أكثر الناس تعبدًا وتدينًا . ومن نظر في معابدهم ومقابرهم ، وتأمل فيما حوته من النقوش والصور ، وقرأ « كتاب الموتى » — أدرك مقدار عنايتهم بتقديس آلهتهم ، وتكريم موتاهم ، واستعدادهم للحياة الآخرة .

تغلغل الدين في شئون حياتهم ؛ حتى كان كل شيء مطبوعاً بطابع ديني . وقد تمتع رجال الدين من كهنة وغيرهم بسلطان لا حد له ، وسيطروا على الحركة الفكرية يسرونها أثنى شاءوا ؛ ولكنهم ما حادوا بها عن الصبغة الدينية البحتة . أما نفوذهم السياسي فقد كان عظيماً ، يزرى بذاك النفوذ الذي تمتع به رجال « الأكليروس » في أوروبا بعد ذلك بقرون عدة .

إلى هؤلاء الكهنة يدين العالم بما يعرفه عن المصريين من ثقافة